فقه السيرة النبوية في التفاسير المعاصرة

Fiqh-Al- Seerah in Contemporary Exegeses

أ.د. أحمد شكري*

Abstract:

This article elaborates relationship between Seerah and Quranic exegeses with special reference to some contemporary Tafsir literature .

The study also throws light on juristic aspect of Seerah as well as the lessons learnt from the Seerah of the Holy Prophet S.A.W .

One of its findings is that Seerah of Prophet Muhammad S.A.W. is a primary source of Quranic interpretation .

التمهيد

يتضمن التمهيد التعريف بعنوان البحث وما يتصل به بإيجاز، وفق النقاط الآتية:

أ- التعريف بفقه السيرة: السيرة النبوية: هي سجل الأحداث المتعلقة بحياة النبي صلى الله عليه وسلم وما يتعلق بها من أحداث سبقتها وأخرى تلتها، والمقصود بفقه السيرة: استنباط ما في هذه الأحداث من عبر وعظات وفوائد ودروس وأحكام فقهية[1].

والاعتناء بفقه السيرة قديم ولكنه لم يحظ بمؤلفات متخصصة كثيرة في السابق، ولعل كتاب "زاد المعاد في هدى خير العباد" للإمام ابن قيم الجوزية، وكتاب "الشفا" للقاضي عياض من الكتب السابقة في لفت النظر والاعتناء بهذا الجانب المهم، وفي العصر الحديث كثرت وتنوعت

* قسم أصول الدين-كلية الشريعة – الجامعة الأردنية

1رجعت إلى عدد من المؤلفات في فقه السيرة لنقل تعريف من أحدها فوجدتهم قد أغفلوا تعريف فقه السيرة، وقد يكون ذلك اتكالا منهم على وضوح وشهرة التعريف، ووجدت تعريفا قريبا مما أثبتُّه في بحث: "فقه السيرة من خلال سورة أحد" للصادق الخوني، ص 3، منشور في مجلة جامعة الملك سعود، بلا تاريخ.

المؤلفات في فقه السيرة، منها ما كتبه محمد الغزالي، ومحمد سعيد رمضان البوطي، وزيد الزيد، كما وُجدت مؤلفات في جوانب من فقه السيرة، كالاقتصار على الروايات الصحيحة فيها كما فعل أكرم ضياء العمري، وإبراهيم العلي ومحمد أبو شهبة، أو استنباط الدروس والعبر كما فعل محمد أبو فارس، وعلي محمد الصلّابي، أو الكتابة في الجانب التربوي والسياسي والجهادي في السيرة كما فعل منير الغضبان، أو تحقيق أحداث معينة محددة منها مع استنباط ما فيها من عبر ودروس وتوجيهات للأمة وأحكام علمية وعملية، كما فعل كثير من طلبة الدراسات العليا في بحوثهم ورسائلهم، كل هذا يدل على النهضة المعاصرة في العلوم الشرعية عموما وعلم السيرة النبوية تحديدا.

ب- التعريف بالتفاسير المعاصرة: التفاسير هي الكتب المؤلفة لتبيين مراد الله تعالى من كلامه، كل باجتهاده أو بما ينقله عمن سبقه، ومقصودي بالمعاصرة: التفاسير المؤلفة في العصر الحديث، وتحديدا في العقود الستة الأخيرة، حيث يعدّ من كان حيّاً في هذه الفترة معاصراً لكثير من الأحياء حاليا، والاختلاف في تحديد المعاصرة لا يكاد ينضبط لاختيار كل ما يناسبه في ذلك، ومنهم من يقصر المعاصرة على الأحياء دون من توفّي، وبرأيي أن التحديد الذي اخترته مناسب لهذا البحث، ويدخل فيه جُلُّ ما ألّف في التفسير حديثا.

ويلحظ المتابع لحركة التفسير المعاصرة كثرة المؤلفات وتنوع مناهجها واتجاهاتها، وأساليب مؤلفيها، ووجود تفاسير جزئية لجزء أو سورة أو آيات معينة، كل هذا من دلائل النهضة المعاصرة في علم التفسير، مع ما شاب هذه النهضة من شوائب وأكدار، إلا أنها في الجملة تعطي صورة مشرقة ومضيئة للجهود الكبيرة المبذولة في خدمة كتاب الله تعالى[1].

ت- الصلة بين علم التفسير والسيرة: لما كانت الآيات الكريمة المتحدثة عن أحداث من السيرة النبوية كثيرة نسبيا، فإن هذا يستدعي من المفسر لهذه الآيات تحديدا أن يكون على اطلاع على أحداث السيرة المتعلقة بها، ليمكنه تفسير الآيات بشكل متطابق معها، وقد رأينا بعض المفسرين القدماء والمتأخرين يوردون روايات السيرة بتمامها عند تفسير الآيات المتحدثة

---

[1] سبق لي إعداد بحث بعنوان: "ظواهر جديدة في التفاسير الحديثة" وقدمته في مؤتمر: "التفسير بين الأصالة والمعاصرة"، الذي نظمته جامعة القدس، عام 2014م، وبينت فيه الجوانب الإيجابية والسلبية المرافقة لحركة التفسير المعاصرة.

عن تلك الأحداث، ومنهم في الجهة المقابلة من لا يورد منها شيئا، ولعل التوسط في هذا الأمر هو الأولى والأصح، فيورد المفسر ما يتعلق بالآية مباشرة وما يبين معناها ولا داعي لنقل تفاصيل الحدث من أحد كتب السيرة وبدلا من ذلك يشير إليه إشارة ويحيل إلى المصدر، وإذا احتاج الأمر إلى تحقيق مسألة أوتحديد وقت لها، أو ترجيح بين خلاف في وقت حادثة أو تفاصيلها، ففي مثل هذا المجال يظهر تفوق المفسر وبراعته في الترجيح أو التحليل.

وتم تخصيص هذا البحث للنظر في مواضع مما يندرج ضمن العلاقة الوثيقة بين التفسير والسيرة، وذلك بتتبع وقت نزول بعض الآيات أو السور، والرجوع إلى أحداث السيرة لتأكيد المعلومة وتثبيتها والترجيح بين الأقوال المتعددة فيها، وفق أسس علمية ومنهجية واضحة.

المبحث الأول

الجهر بالدعوة ونزول سورة المسد

بدأت مرحلة الجهر بالدعوة في السنة الثالثة من البعثة، كما ورد في كثير من كتب السيرة[1]، وتمثل بداية هذه المرحلة منعطفا بالغا في أحداث السيرة، حيث تحولت كثير من المجريات وفق هذا الحدث، وبدأ التضييق على الصحابة الكرام رضى الله عنهم يزداد حتى لجأ عدد منهم إلى الهجرة إلى الحبشة.

وفي الروايات التي تذكر هذه الحادثة ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما نزلت {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}[2]صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقيَّ؟ قالوا: نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا، فنزلت{ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ }[3]" [4]

---

[1] يُنظر: السيرة النبوية من القرآن والسنة لمحمد أبو شهبة، 291/1، والرحيق المختوم للمباركفوري، ص 68.

[2] الشعراء: 214

[3] المسد: 1

[4] رواه البخاري برقم 4770.

وبحسب اختلاف الروايات نجد في بعضها ذكراً لنزول قوله تعالى {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ }[1]وقوله: {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ }[2]أو إحداهما قبل أو بعد نزول سورة المسد، في أوقات متقاربة[3].

أما نزول سورة المسد في تلك الفترة فهو أمر ثابت بالروايات الصحيحة، في الأحاديث وأسباب النزول وكتب التفسير والسيرة، وواضح أن نزولها بسبب تلك الحادثة متناسب جدا، ولكن يبقى تساؤل عن مسألتين تتصلان بهذا الأمر:

المسألة الأولى: ذكر إيذاء أم جميل امرأة أبي لهب للنبي صلى الله عليه وسلم في السورة، و لم يكن عليه الصلاة والسلام قد أعلن الدعوة بعد، فكيف تكون قد آذته وهو لا يزال في الدعوة السرية، والجواب عن هذه المسألة أنه في أثناء الدعوة السرية حصل شيء من العلم تهامسا أو تناقلا بين الناس أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – يبشر بدين جديد[4]، ولكن كونه لم يعلن ذلك بشكل واضح، يبقى الأمر ضمن دائرة ضيقة من ذوي العلاقة، وعلاقة بيت أبي لهب ببيت النبي صلى الله عليه وسلم ليست مقتصرة على صلة القرابة، فقد كانا متجاورين في السكن، وكان ابنا أبي لهب قد عزما على الزواج من ابنتي النبي صلى الله عليه وسلم، فلما جهر النبي الكريم صلَّى الله عليه وسلم بالدعوة أمر أبو لهب ابنيه بطلاقهما، ففعلا[5]. وكانت أم جميل تضع الشوك وحطب العضاه والحسك والسعدان في الليل في طريق النبي صلى الله عليه وسلم الذي يسلك منه إلى بيته ليعقر قدميه[6].

---

[1] الشعراء: 214

[2] الحجر: 94

[3] في كتاب السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة أن آية (فاصدع بما تؤمر) نزلت أولا تلاها (وأنذر ...) تلاها سورة المسد 291/1و292، وفي الرحيق المختوم أن آية (فاصدع..) نزلت بعد المسد، ص 70، وفي كتاب السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث أن آية (وأنذر ..) نزلت قبل سورة المسد و(فاصدع) بعدها، ص 120و121.

[4] يُنظر: الرحيق المختوم، ص 68.

[5] الرحيق المختوم، ص 71.

[6] أورده ابن عاشور في التحرير والتنوير 605/30، ووهبة الزحيلي في التفسير المنير، 859/20و860، ومصطفى العدوي في التسهيل، ص 669، وفي بعض المراجع أنه صلى الله عليه وسلم كان يطأها كما يطأ الحرير أورده في حدائق الروح والريحان 424/32،

والمسألة الثانية: أن الروايات التي ورد فيها ترتيب نزول السور تكاد تجمع على أن سورة المسد هي سادسة السور نزولا بعد: العلق والمدثر والمزمل والقلم والفاتحة[1]، وهذا مشكل جدا، لأن ما نزل من سورة العلق حتى وقت الجهر بالدعوة لا يتجاوز الآيات الخمس الأولى منها، وما نزل من المدثر كذلك، وما نزل من المزمل قد يصل لمعظمها أو أقل، وأما سورة القلم فلم يكن نزل منها سوى أوائلها – إن سلمنا بنزولها مبكرا – وفاتحتها تكاد تصرح بتأخر نزولها إلى ما بعد اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم وذلك متأخر عن الجهر بالدعوة، والموافقة على هذا الكلام يعني أن ما نزل من القرآن خلال السنوات الثلاث الأولى من البعثة وهي سنوات تأسيس لهذا الدين لا يتجاوز خمسين آية، ولا يمكن التسليم به خاصة مع ورود روايات تؤكد نزول آيات أو سور في تلك المدة[2].

ونعود إلى مسألة نزول آية الشعراء وآية الحجر قُبيل أو بُعيد سورة المسد، ففي روايات أن آية الشعراء نزلت قبل سورة المسد، وفي بعضها إضافة على نص الآية وهو (ورهطك [أو: وقومك] منهم المخلصين) ما جعل بعض المؤلفين يذهب إلى ما نزل ليس آية الشعراء الموجودة الآن، إنما وحي بمعناها لم يكتب ولم يعدّ من القرآن[3]، وهو قول ظاهر البعد، وذهب غيره إلى أن سورة الشعراء نزلت كلها في ذلك الوقت وربط بين محتوى سورة الشعراء وهو قصص مجموعة من الرسل وما حدث بينهم وبين أقوامهم والانتهاء بإهلاك الأقوام، ومناسبة هذا الموضوع للجهر بالدعوة[4]، وهو كسابقه خروج عن النص وزيادة عليه، والذي ينبغي المصير إليه الاقتصار على ما ورد في الرواية الصحيحة من نزول آية واحدة، أما الزيادة عليها بعبارة: (ورهطك منهم المخلصين) فإما أن تكون مما نسخت تلاوته لاحقا، أو من إدراج بعض الرواة.

---

[1] الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 92/1-96 مع اختلاف بين الروايات في ترتيبها، والتحرير والتنوير 599/30، ومعارج التفكرودقائق التدبر لعبد الرحمن حسن جنكة الميداني، ج 1، صفحة الغلاف، والتفسير الموضوعي 434/9، وانفرد الهرري في حدائق الروح والريحان بأن سورة المسد نزلت بعد سورة الفتح ولم يذكر دليلا عليه 416/32، والظاهر أنه وهم منه، لأن أبا لهب توفي قبل ذلك التاريخ

[2] للوقوف على طرق التوصل إلى تحديد وقت نزول الآية أو الآيات، يُنظر: أهمية العلم بتاريخ نزول آيات القرآن الكريم ومصادره، أحمد خالد شكري وعمران سميح نزال، ص 61-68.

[3] قاله من المفسرين المعاصرين ابن عاشور في التحرير والتنوير 600/30، ولعبد الرحمن الميداني في معارج التفكر 378/1 رأي بناه على جمع روايات متعددة لحادثة البدء بتبليغ الدعوة خلص فيه إلى أن نزول آية (وأنذر ..) متأخر مع سورتها.

[4] ذكر ذلك صفي الرحمن المباركفوري في الرحيق المختوم، ص 69.

أما آية الحجر فحسب ظاهر الروايات أنها نزلت بعد سورة المسد وبعد مدة من الجهر بالدعوة، ففي الروايات أنه صلى الله عليه وسلم بعد نزولها اتجه بالدعوة إلى غير قريش، ووسّع من دائرة المخاطبين بالدعوة[1]، التزاما بنص الآية، واتباعا لأمر الله تعالى، وأيضا حسب الظاهر فالآية نزلت منفردة لا ضمن سورتها كلها، ولا ضمن مجموعة من الآيات حولها.

ويلحظ أن كثيرا من المفسرين المعاصرين لم يبحث في تفسيره لسورة المسد في وقت نزولها، وفي تعلق نزول آية الشعراء وآية الحجر بها، واقتصروا على إيراد سبب النزول وسرده، دون البحث في وقت النزول، وظروفه وملابساته وصلته بأحداث السيرة النبوية[2].

ومما يتصل بهذا الموضوع الوقوف على رواية "أن أم جميل بعد نزول السورة أرادت الانتقام لنفسها وإيذاء النبي صلى الله عليه وسلم والانتقام منه، فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قال: "لما نزلت { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ }[3]أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة وفي يدها فهر، وهي تقول: مُذمَّماً أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، والنبي صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله قد أقبلت وأنا أخاف أن تراك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنها لن تراني، وقد قرأ قرآنا فاعتصم به كما قال، وقرأ: { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا }[4]فوقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني، فقال: لا ورب هذا البيت ما هجاك، فولّت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها"[5].

والوقوف مع هذه الرواية من جوانب:

---

[1] يُنظر: الرحيق المختوم، ص 71و71.

[2] يُنظر: التسهيل لمصطفى العدوي، ص 663.

[3] المسد: 1

[4] الإسراء: 45

[5] رواه الحاكم في المستدرك برقم 3376، وأورده ابن أبي حاتم في تفسيره وفيه ذكر آية سورة الإسراء، وأورد الألباني بعضه في صحيح السيرة النبوية، ص 137. والرواية في كتاب السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لا ذكر فيها لآية الإسراء، 293/1، وكذلك الرواية في التفسير الوسيط لمجموعة من علماء الأزهر بدون ذكر آية الإسراء، 2047/3، وفي تفسير حدائق الروح والريحان ذكر آية الإسراء، 427/32، وفي معارج التفكر لا ذكر لها ولكن استشهادٌ بها مما يجعل النص يحتمل الأمرين 391/1.

الجانب الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قوله تعالى { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا }[1]وهذا يدل على أن هذه الآية كان قد سبق نزولها بوقت طال أو قصر، وفي بعض الروايات لم يورد نص الآية وورد مكانه أنه قال كلاما فلم تره، وفي بعضها أنه قال إنها لن تراني، دون أي ذكر للآية، ولكن لما ورد ذكر الآية في رواية صحيحة[2]، ولا مانع من القول بنزولها قبل سورة المسد، فينبغي المصير إليه.

الجانب الثاني: ما حصل مع النبي صلى الله عليه وسلم من عدم إمكان رؤيته من قبل من أراده بسوء لم يثبت حصوله في حادثة أخرى، وهذا يدلّ على خصوصية هذا المعنى من الآية، وهو حجب الرؤية البصرية عمن يريد إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد المسلمين بهذه الحادثة، ولا تُفسَّر الآية بأن من تلاها أو تلا آية من القرآن أمكنه أن يحتجب عن أبصار المشركين، وتفسير الآية أن الله سبحانه يجعل بين تلاوة النبي الكريم صلَّى الله عليه وسلم ومن يسمعه من المشركين حائلا يحول بينهم وبين فهم القرآن وإدراك ما فيه من الهداية، وهذا الحائل لا يكون دائما بدليل حصول انتفاع عدد من المشركين بتلاوة الآيات عليهم.

الجانب الثالث: صرفُ الله سبحانه إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم من قبل هذه المرأة له عدة جوانب؛ عدم تمكنها من رؤيته وهو موجود أمامها، وتسميتها إياه مذمما فلا يقع عليه الشتم، فهي تشتم غيره.

الجانب الرابع: نفي أبي بكر لها أن النبي صلى الله عليه وسلم هجاها، له توجيهان، الأول: أن ذكر ما في المرء من عيب لا يسمى هجاءً لانطباقه عليه، والثاني: لأن النبي صلى الله عليه وسلم ليس هو قائل هذا الكلام، فهو كلام الله سبحانه[3].

وقد يقال: إن هذا المنهج في الجزم بنزول آيات متفرقة من سور متعددة في أوقات متباعدة عن وقت نزول السورة فيه تشتيت للآيات وبتر لها من سياقاتها، ويؤدي إلى أن آيات عديدة نزلت قبل نزول باقي السورة، فأين كانت تحفظ؟ وبأي سورة كانت تُلحق؟ وهل يناسب أن توجد

---

[1] الإسراء: 45

[2] قال الحاكم في المستدرك: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي (المستدرك 393/2) وحسنه ابن حجر في فتح الباري كما ذكر سامي سلامة محقق تفسير ابن كثير في هامشه (516/8).

[3] يُنظر: تفسير سورة الفاتحة وجزء عم، لأحمد فريد أبو هزيم وأحمد خالد شكري، ص 266 و267.

آية أو آيات بدون سورة؟ أو أن تشكل الآية منفردة سورة ليس لها اسم بانتظار نزول باقي السورة؟ لأن هذه الآيات الثلاث مدار الحديث الآن ليس لها علاقة مباشرة باسم السورة التي تنتمي إليها، ولو سميت آية سورة الإسراء بهذا الاسم، وبقيت سورة الإسراء مكونة من آية واحدة أو آيات قليلة ليس منها الآية الأولى قطعا لتأخر نزولها إلى حصول الحادثة، لأثار ذلك إشكالات عديدة وتساؤلات لا جواب لها في تلك الفترة، وبرأيي أن هذا الموضوع بحاجة إلى مزيد بحث وبسط، وما في هذا البحث إنما هي إضاءات ومداخل لما يمكن الوصول إليه لاحقا من ثمرات في هذا الموضوع الشيق الشاقّ[1].

وخلاصة هذا المبحث أن الجهر بالدعوة حصل في السنة الثالثة من البعثة، وأن آية الشعراء: { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ }[2] كانت هي الباعث له، ورافقه نزول سورة المسد كاملة، وبعدها بمدة قريبة نزلت آية الحجر: { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ }[3]، وأن آية الإسراء: { وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا }[4] كانت نازلة قبل ذلك، والله أعلم.

المبحث الثاني

حادثة المعراج ونزول سورة النجم

اختلف كُتاب السيرة اختلافا كبيرا في تحديد وقت حصول حادثة الإسراء والمعراج، وبما أن المقام لا يتسع لبسط الخلاف، أقتصر على ترجيح القول بأنه كان قبل الهجرة بنحو سنة، وهو القول الذي مال إليه أو اقتصر عليه من يمكن وصفهم بالمحققين في فقه السيرة[5].

---

[1] سبق لي المشاركة في إعداد بحث له صلة بهذا الموضوع عنوانه: "أهمية العلم بتاريخ نزول آيات القرآن الكريم ومصادره" بالاشتراك مع الأستاذ: عمران سميح نزال، ونشر في مجلة المنارة للبحوث المحكمة التي تصدرها جامعة آل البيت في الأردن، ثم نشرته جمعية المحافظة على القرآن الكريم في الأردن، عام 2007.

[2] الشعراء: 214

[3] الحجر: 94

[4] الإسراء: 45

[5] رجّح المباركفوري في الرحيق المختوم أن الإسراء والمعراج كان قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبتين، مستدلا على ترجيحه بسياق سورة الإسراء، ص 123، وسرد مجموعة أقوال في وقت حصوله، ص 119، ورجح الصلابي في السيرة النبوية أن المعراج كان قبل الهجرة بسنة تبعا للقاضي عياض، ص 226،

ولما ورد ذكر المعراج في سورة النجم، تحديدا في الآيات: {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى }[1]كما نص عليه جمهرة المفسرين، اقتضى ذلك من المفسر المدقق والباحث في فقه السيرة النبوية التوقف والبحث في وقت نزول السورة، وهل كانت هذه الآيات مما نزل مع السورة ابتداء أو أنها نزلت متأخرة عنها وألحقت بها؟

لدى الرجوع إلى روايات نزول سورة النجم نجد ما يؤكد أنها نزلت في السنة الخامسة من البعثة، فعن ابن مسعود رضي الله عنه "أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم فسجد بها، فما بقي أحد من القوم إلا سجد، فأخذ رجل كفّاً من حصباء أو تراب فرفعه إلى وجهه وقال: يكفيني هذا، قال عبد الله: "فلقد رأيته بعد قتل كافرا"، وهذا الرجل أمية بن خلف[2]، وعنه رضي الله عنه قال: ''هي أول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة''[3]، وعنه:''أول سورة أنزل فيها سجدة والنجم''[4]، وهي روايات متقاربة الدلالة على تحديد وقت النزول، ولا تتعارض مع تحديد وقت نزولها بالسنة الخامسة، وتحديدا في فترة إسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما، وكان سماع المهاجرين إلى الحبشة عن حادثة سجود المشركين، وإسلام عمر سببا في عودتهم إلى مكة، وكان ذلك في رمضان من السنة الخامسة للبعثة[5].

ورجح مؤلفو التفسير الوسيط أنه كان في عام الحزن بعد وفاة خديجة رضى الله عنه، ص 1140، وفي حدائق الروح والريحان أن المعراج كان قبل الهجرة بسنة وأربعة أشهر أو بثلاث سنين، 118/28.

[1] النجم: 13 – 18

[2] رواه البخاري برقم 1067، ومسلم برقم 1325.

[3] ذكره ابن عاشور 87/27، ونسبه وهبة الزحيلي في التفسير المنير لابن مردويه و لم يحكم على الرواية، 101/14.

[4] رواه البخاري برقم 4863

[5] الرحيق المختوم للمباركفوري، ص 81 قال إن سورة النجم نزلت في هذا الوقت، وأن إسلام عمر رضى الله عنه كان في ذي الحجة سنة ست، ص 86، وذكر أبو شهبة في السيرة النبوية أن سورة النجم نزلت في شوال سنة خمس أو ست وأن إسلام عمر كان في الفترة نفسها، 575/1، وذكر الصلابي أن سبب عودة المهاجرين إسلام عمر وحمزة، وأن الهجرة كانت في رجب سنة خمس، ص 193و196

واختلف العلماء في تعليل حصول السجود من المشركين، واستدل بعضهم بما ورد في روايات أن الشيطان أدخل ضمن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم بصوت يشبه صوته عبارة: ''تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى'' بعد قوله تعالى {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى }[1]وسمع هذه العبارة المدرجة المشركون فقط أو الحضور كلهم، فكان امتداح هذه الأصنام هو الباعث لسجود المشركين، ومن الظاهر بطلان هذه الروايات،فالآيات في السورة تذم الشرك وأهله والأصنام واللات والعزى ومناة تحديدا، فلا يناسب مطلقا ورود عبارات حولها تمتدحها[2]، وقد أحسن من وجّه الحادثة بأن قال: إن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قرأ السورة بأداء متميز يليق بمقام النبوة وأن التأثر بلغ بالمشركين الحاضرين مبلغا كبيرا، فلما سجد سجدوا لسجوده تأثرا وانفعالا[3]، وهو توجيه أقرب من ذاك، كما يمكن التوجيه بأن المشركين بعد حصول السجود منهم أرادوا تدارك الأمر فزعموا أن الآيات امتدحت آلهتهم بالعبارات التي تنقل في قصة الغرانيق، ليجدوا لأنفسهم مخرجا من الحرج واللوم.

وبناء على ما سبق يمكن القول بأن معظم سورة النجم نزل في السنة الخامسة من البعثة، وأن الآيات الست المتحدثة عن المعراج نزلت بعده في السنة الثانية عشرة من البعثة، وألحقت بموضعها من السورة، وكان النظم قبل نزول هذه الآيات، وبقي بعدها نظما معجزا مبهرا لكل من سمع السورة أو قرأها، وهذا من أعظم الأدلة على أنه كلام الله الخبير، الذي عجز الخلق إنسا وجنا عن مجاراته أو الإتيان بمثله، وأعلنوا بلسان الحال والمقال عدم قدرتهم على مواجهة التحدي للإتيان بمثله أو بسورة من مثله، فسبحان الله القدير، وتعالى شأنه وعظم أمره.

وقد يشكل على أثر ابن مسعود أن سورة النجم أول سورة فيها سجدة أنزلت بسبق نزول سورة العلق عليها، ويجاب عنه بأن ما نزل من سورة العلق هو الآيات الخمس الأولى منها، أما باقي السورة فقد تأخر نزوله عن أولها ويشير مضمون الآيات إلى أنه نزل في فترة ما بعد الجهر بالدعوة بمدة حيث كان الإيذاء للنبي صلى الله عليه وسلم الكريم وصحبه، وبهذا يزول الإشكال.

---

[1] النجم: 19، 20

[2] ردّ كثير من العلماء على هذه الحادثة وأبطلوها بأدلة قوية دامغة، كما فعل أبو شهبة في السيرة النبوية 365/1-374، والألباني في كتابه: "نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق"

[3] ذكر الجانب المتعلق بجودة القراءة وحسن الأداء سيد قطب في ظلال القرآن 71/7.

وخلاصة هذا المبحث أن سورة النجم نزل معظمها في نجم واحد في السنة الخامسة من البعثة، وأن الآيات من 13-18 المتحدثة عن المعراج نزلت بعد الحادثة وألحقت في موضعها من سورتها.

المبحث الثالث

غزوة حمراء الأسد وبدر الصغرى ونزول آيات من سورة آل عمران

في اليوم التالي لغزوة أُحُد والتي كانت في يوم السبت الخامس عشر من شوال سنة ثلاث من الهجرة، أي في يوم الأحد السادس عشر من شوال من سنة ثلاث[1] خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع من كان حاضرا في المعركة إلى حمراء الأسد يتبع أبا سفيان لمنعه من العودة إلى المدينة، فقد خطر في بال أبي سفيان بعد أن وصل إلى الروحاء أن يعود إلى المدينة ليستكمل نصره المبتور، حيث شعر أنه لم يحقق نصرا كاملا، ومكث النبي صلَّى الله عليه وسلم ومن معه في حمراء الأسد من الأحد السادس عشر من شوال حتى الأربعاء التاسع عشر منه ثم رجع إلى المدينة و لم يحصل قتال، ونزل في هذه الحادثة وامتداح الصحابة رضى الله عنهم الذين خرجوا بعد ما أصابهم يوم أحد بيوم واحد وهم يعانون من الجراح والآلام قوله تعالى { الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ }[2] وقد ورد في كتب السيرة والتفسير روايات تدل على نزول الآيات الثلاث: { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ }[3] في شأن غزوة بدر الصغرى، فقد كان أبو سفيان قال في نهاية غزوة أحد: موعدنا بدر العام المقبل، وأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم بالموافقة، وفي شعبان من سنة أربع توجه صلى لله عليه وسلم إلى بدر ومعه ألف وخمس مئة مقاتل، وكان أبو سفيان قد خرج من مكة

---

[1] السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لأبي شهبة 228/2، والسيرة النبوية للصلابي، ص 505، وذكر المباركفوري في الرحيق المختوم أن غزوة حمراء الأسد كانت يوم الأحد الثامن من شوال، ص 244، وكذلك فضل عباس في التفسير المنهجي 150/3.

[2] آل عمران: 172

[3] آل عمران:173-175

ووصل إلى مرّ الظهران، وتوقف هناك وتردد في الوصول إلى بدر وزعم أنه عام جدب وقلة ماء، وأن الأنسب أن تحصل المعركة مع المسلمين في ظرف أنسب، وأرسل مع وفد من عبد القيس إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين رسالة تهديد ووعيد وأنه سيقدم عليهم مبيدا لهم، فقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، أما المسلمون فمكثوا في بدر ينتظرون قدوم المشركين، وأقاموا ثمانية أيام، وشاركوا في سوق بدر وتاجروا وربحوا في الدرهم درهمين، ورجعوا، وفي هذه الحادثة نزلت الآيات من 173-175 من سورة آل عمران[1]، وتسمى هذه الغزوة: بدر الصغرى، وبدر الثانية، وبدر الموعد، وبدر الآخرة.

وفي كتب السيرة والتفسير خلاف في هذه الآيات الأربع، هل نزلت كلها في غزوة حمراء الأسد، أو نزلت أولاها في حمراء الأسد والثلاثة التالية في غزوة بدر الصغرى بعد ذلك بنحو عشرة أشهر. وتفاوتت آراء المفسرين المعاصرين في تفسير هذه الآيات بين ثلاثة اتجاهات:

الأول: تفسير الآيات الأربع على أنها في غزوة حمراء الأسد[2].

الثاني: تفسير الآية الأولى منها على أنها في غزوة حمراء الأسد، والآيات الثلاث بعدها في غزوة بدر الصغرى[3].

الثالث: عدم وضوح كلام المفسر في ترجيحه، أو ذكر إحدى الحادثتين فقط[4].

---

[1] يُنظر: السيرة النبوية لأبي شهبة 244/2، وفي الرحيق المختوم ذكر الحادثة ولم يذكر نزول الآيات فيها، ص 256، وفي السيرة النبوية للصلابي لم يذكر نزول الآيات كذلك، وحدد وقت الغزوة في ذي القعدة، ص 567

[2] كما في ظلال القرآن لسيد قطب 519/2و520، وأيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري، 412/1، والتسهيل لمصطفى بن العدوي، ص 417.

[3] كما في التحرير والتنوير لابن عاشور 168/4و169، والتفسير الوسيط لجماعة من علماء الأزهر 704/1و705، والتفسير المنير لوهبة الزحيلي 501/4و502، وحدائق الروح والريحان للهرري 271/5و272.

[4] عدم الوضوح كما في التفسير الموضوعي لمجموعة من العلماء 546/1، وأنها كلها في غزوة بدر الصغرى كما في التفسير المنهجي لفضل عباس 211/3، والتردد بين القولين كما في التسهيل لمصطفى بن العدوي حيث رجح أنها كلها في حمراء الأسد معللا الترجيح باتباع الطبري وابن كثير، مع وجود علل في الرواية منها الإرسال، وأن رواية بدر الموعد ضعيفة، ص 417و418.

وخلاصة هذا المبحث وبعد التأمل في الأقوال ترجح لي أن الآية الأولى من هذه الآيات الأربع نزلت في غزوة حمراء الأسد، وأن الآيات الثلاث التالية لها نزلت في غزوة بدر الصغرى، وهذا الترجيح بناء على قوة وصحة ووضوح دلالة الروايات، ولكن في هذا القول اقتضاء تفرق نزولها، ويكون بين نزول الآية الأولى منها والآيات الثلاث التي تليها نحو عشرة أشهر، وقد يقال إن سياق الآيات ونظمها يأبى هذا الفصل بينها في النزول، وسبق الرد على مثل هذا الاعتراض، بل إن تفرق النزول وما يتبعه من روعة وانسجام وتوافق سياق الآيات مع تفرق نزولها من أعظم الأدلة على أنه كلام الله اللطيف الخبير.

ويُبنى على هذا الترجيح تعين الوقف على (أجر عظيم) آخر الآية 172، لأن (الذين قال لهم الناس ...) بعدها استئناف كلام جديد، ولا يصح إعرابه على أنه صفة أو بدل[1].

المبحث الرابع

حجة الوداع ونزول بعض الآية الثالثة من سورة المائدة

من المجمع عليه أن حجة الوداع كانت في السنة العاشرة من الهجرة، وورد في روايات متعددة أن بعض الآية الثالثة من سورة المائدة نزل يوم عرفة، وهو قوله تعالى: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا }[2]، ففي الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه "أن رجلا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال: أي آية؟قال: (اليوم أكملت..) قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي صلى الله علبه وسلم وهو قائم بعرفة يوم جمعة"[3]، وفي روايات النص على نزول العبارة التي قبلها معها وهي: { الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ }[4]وقد اختلف المفسرون في تحديد وقت نزول سورة المائدة، بين عدة أقوال أشهرها ثلاثة، هي:

---

[1] إعراب القرآن الكريم وبيانه لمحيي الدين درويش 111/2.

[2] المائدة: 3

[3] رواه البخاري برقم 45 ومسلم برقم 7710 و7711، ويلحظ في الرواية تسمية العبارة آية تجوزا من باب تسمية البعض باسم الكل، واختلفت الروايات في تحديد وقت النزول ففي بعضها أنه ليلة جمع، أي بعد غروب شمس يوم عرفة، وفي روايات: عشية عرفة، وفي بعضها تحديد الوقت بأنه بعد الخطبة وقبل الصلاة.

[4] المائدة: 3

الأول: نزول السورة جملة واحدة دون تحديد وقت نزولها الدقيق، أو أنها نزلت عام الحديبية[1]، وهو قول ضعيف لضعف أدلته ومعارضتها ما هو أصح منها.

الثاني: نزول السورة في السنة العاشرة، ويستدل له بالروايات التي تدل على هذا، ومنها أن النبي صلى اله عليه وسلم قرأ سورة المائدة في حجة الوداع، وقال: ''يا أيها الناس إن سورة المائدة آخر ما نزل فأحلوا حلالها وحرموا حرامها''[2]، وروى جبير بن نفير قال: ''دخلت على عائشة رضي الله عنها فقال: هل قرأت سورة المائدة؟ قال: نعم، قالت: فإنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه''، وروي قريب منه عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما[3]، ويعارضه تأكد نزول آيات منها قبل ذلك، فتستثنى من وقت نزول معظم آيات السورة.

الثالث: نزول السورة في مدد متفاوتة، فمنها ما نزل في أوائل المدة بعد البعثة، كآيات قصة موسى، وآيات قصة عيسى، ومنها ما نزل بعده كآيات حادثة بني قينقاع، وحوار أهل الكتاب، وآية الوضوء، وتحريم الخمر، ومنها ما نزل في السنة السادسة كآيات تتعلق بصلح الحديبية، ومنها ما نزل بعد ذلك ولغاية حجة الوداع كبعض الآية الثالثة، وهو القول الأقرب، لما يدل عليه من روايات ولما يدل عليه من موضوعات الآيات[4].

---

[1] ذكر نزولها بعد الحديبية وهبة الزحيلي في التفسير المنير 408/3.

[2] أورده وهبة الزحيلي في التفسير المنير و لم يخرجه 408/3، والهرري في حدائق الروح والريحان 87/7 و لم يحكم عليه، و لم أعثر عليه في دواوين السنة.

[3] رواه عن عائشة رضى الله عنها أحمد في المسند برقم 25547 وقال محققه: إسناده صحيح، وراه عن ابن عمرو الحاكم في المستدرك برقم 3211، وذكره عدد من المفسرين منهم: مصطفى بن العدوي في التسهيل 6/2، والزحيلي في المنير (408/3).

[4] ذكر ابن عاشور في مقدمة تفسيره للسورة 69/6-72 اثني عشر قولا في تحديد وقت نزول السورة، وردّ بعضها، ورجح أن بعضها نزل بعد بعض سورة النساء، ولكنه في مواضع متعددة من تفسير السورة كان يؤكد تأخر نزولها وأنها آخر أو من آخر ما نزل، كما في 257/6، وفي تفسير الآية 6 قال: "روى البخاري أنها نزلت في غزوة المريسيع" واستبعده 126/6، وفي تفسير الآية 33 ذكر أن حادثة الحرابة حصلت سنة ست فتكون هذه الآية ناسخة لما عوقبوا به، وهي إشارة منه إلى تأخر نزول الآية عن الحادثة 180/6، وفي تفسير الآية 51 نقل أنه نزلت بعد بدر أو أحد و لم يرتضه وجزم بنزولها بعد غزوة تبوك أو حولها، 232/6، وفي تفسير الآية 54 أكد تأخر نزولها ومناسبته لموضوعها وإشارتها إلى ما سيحصل

والآية الثالثة من السورة هي قوله تعالى: { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }[1]وقد ورد أن سبب نزول الآية الثالثة ما حدث به عبد الله بن جبلة بن حيان بن أبجر عن أبيه عن جده حيان، قال: ''كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أوقد تحت قدر فيها لحم ميتة، فأنزل تحريم الميتة، وأكفئت القدور''[2]ولكن لم يحدد في الرواية الآية المقصودة، وتحريم الميتة موجود في آيات عديدة، منها آية البقرة:173، والنحل:115، والأنعام:145، فيحتمل أن يكون المقصود إحداها، وذكرُ الرواية في تفسير سورة المائدة عند عدد من المفسرين يدل على ترجيحهم أنها آية المائدة، مع أن الظاهر أن الآية الثالثة من سورة المائدة لم تنزل مستقلة ونزلت مع سياقها لتقارب الموضوعات وتكاملها، كما أن الرواية لا تحديد فيها لوقت نزول التحريم، والأقرب أن

من ردة قريبا، وفي تفسيرالآية 67 أورد الروايات التي تدل على نزولها مبكرا عن الوقت الذي ارتضاه لنزول السورة مما ألجأه إلى ردّ الأخبار مع كثرتها وصحتها، 255/6–264، وفي تفسيرالآية 82 ذكر أنها نزلت في نصارى الحبشة سنة سبع، واستشكله 9/7، وفي تفسير الآية 90 قال "والمشهور أن الخمر حرمت سنة ثلاث من الهجرة بعد وقعة أحد، فتكون هذه الآية نزلت قبل سورة العقود، ووضعت بعد ذلك في موضعها هنا" 22/7، وفي تفسير الآية 94 ذكر أنها نزلت في الحديبية فقال: "فلعل هذه الآية ألحقت بسورة المائدة إلحاقا" 37/7، وقال في تفسير الآية 100: "ولكن السورة كلها نزلت في عام حجة الوداع" 63/7، وفي تفسير الآية 101 رأى أنها نزلت ثم ألحقت بالسورة، 66/7، ومن خلال هذه الأمثلة يظهر وجود إشكال في تحديد وقت نزول السورة عند ابن عاشور وأنه كان أحيانا يجزم بنزولها جملة عام حجة الوداع وإن أدى ذلك إلى ردّ روايات، وأحيانا يضطر إلى استثناء آيات منها تبعا لصحة وكثرة الروايات، وقد أشار سيد قطب في ظلال القرآن إلى نقاط واضحة تدل على تنوع أوقات نزول آيات السورة، فذكر أن ما قاله بنو إسرائيل لموسى في الآية 24 كان معلوما للصحابة قبل غزوة بدر بدليل الاستشهاد بها، إلا أن يكونوا يعرفونها عن أهل الكتاب وهو مستبعد، وقد شرعت في بحث حول ترتيب نزول آيات سورة المائدة، أسأل الله تعالى الإعانة لإتمامه.

[1] المائدة: 3

[2] رواه ابن منده في معرفة الصحابة (412/1) و لم أجد حكم المحقق عليه، وأوردهالزحيلي في التفسير المنير 425/3، وأورده الهرري في حدائق الروح والريحان 92/7، وتحرَّف فيها حيان إلى حبان، وأبجر إلى حجر، وأكفئت القدور إلى فأكفأت القدر.

يكون ذلك في سورة مكية كالأنعام أو النحل، ويكون ما نزل لاحقا في الآيات المدنية مؤكدا للتحريم لا مؤسسا له.

والمقدار المستثنى من نزول هذه الآية قبل حجة الوداع، يحتمل أن يكون عبارتي: {الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ}[1] ويحتمل أن يكون الجزء الثاني منها فقط، كما في بعض الروايات، ولكن تكامل معنييهما، وما ورد في روايات عديدة من جمعهما معا في النزول يوم عرفة، يؤكد نزولهما معا، وأن من اقتصر في الرواية على الجزء الثاني منهما لأهميته أو لقصده هو في حديثه.

وقد يرد إشكال يتعلق بما ورد في نص خطبة عرفة من عبارة تشبه العبارة الأولى وهي {الْيَوْمَ يَئِسَ... } ولم تكن الآية قد نزلت بعد، فإن نزولها كان عشية عرفة، أي بعد الخطبة وصلاة الظهر والعصر جمعا وقصرا، وتؤكده بعض الروايات المحددة لنزولها، والجواب عنه من وجوه، منها: أن العبارة نزلت بما يوافق نطق النبي صلى الله عليه وسلم، كما نزلت آيات بموافقة نطق بعض الصحابة الكرام رضى الله عنهم[2]، ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم استشهد بها في خطبة يوم النحر أو إحدى خطب حجة الوداع أي بعد نزول الآية، فقد تعددت خطبه صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع كما ثبت، ومنها: أن ألفاظ الحديث وإن تقاربت مع ألفاظ العبارة إلا أنها ليست هي، ومعنى العبارة مما هو ثابت في هذا الدين فتتوافق المعاني مع اختلاف الألفاظ، ومنها أن خطبة يوم عرفة لا تتضمن هذه العبارة في روايات عديدة، وأن رواية مسلم للعبارة لم يذكر فيها يوم عرفة، ونصها: "إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم"[3]، وإن كان ظاهر الحديث يدل على انتشار الإسلام في الجزيرة.

وكثير من المفسرين المعاصرين في تفسيره لهذه الآية لم يعلق على ورود عبارتين في الآية ليس لهما صلة مباشرة بموضوعها، وأنهما قطعتا الكلام عن حكم المحرمات بشكل مفاجئ، وفي المقابل نجد عددا منهم توقف وتأمل في تفسيره لهذه الآية، ومن هؤلاء سيد قطب الذي بيّن أن ورود هذه العبارة وسط آية التحليل والتحريم لبعض الذبائح يدل على تكامل

---

[1] المائدة: 3

[2] يُنظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 1/127-129.

[3] رواه مسلم برقم 7281.

الشريعة[1]،وابن عاشور الذي نص على السياق بعد هاتين العبارتين رجع إلى الموضوع المتحدث عنه في أول الآية، وأن ما بينهما جملة معترضة، وأحال إلى الزمخشري في الكشاف ونسب إليه الانفراد بهذه الإشارة[2].

وخلاصة هذا المبحث أن معظم الآية الثالثة من سورة المائدة نزل في نحو السنة السادسة من الهجرة، وأن العبارتين اللتين تخللتا الحديث عن المحرمات نزلتا يوم عرفة في حجة الوداع.

الخاتمة

يعدّ البحث في هذا الموضوع شائكاً صعباً، لما فيه من قلة المادة المباشرة، ولما يحتاج إليه من تتبع وجمع وترجيح وأخذ وردّ، ولذا تحاشى البحث فيه كثيرون، واكتفى عدد منهم بالنص على عدم إمكان الجزم بترتيب نزول الآيات، دون دخول في التفاصيل الدقيقة، وقد بدا لنا من خلال هذا البحث إمكان الجزم بوقت نزول بعض الآيات، وقد يصعب ذلك في آيات غيرها.

ومن فقه السيرة النبوية أن يربط الباحث بين أحداثها وبين آيات القرآن الكريم المتحدثة عنها أو المذكورة فيها، ليتمكن من الوصول إلى ما يبحث عنه من جزئيات دقيقة، وفروع خفية، وبرأيي فإن هذا البحث يعدّ نواة للسير في مشروع تتبع زمن نزول الآيات من خلال أحداث السيرة والروايات وأقوال المفسرين، وفق ضوابط علمية جادة وصحيحة.

ومن نتائج هذا البحث تحديد وقت نزول بعض الآيات والسور بناء على نظر وتأمل وجمع بين الأقوال والروايات، ولهذا الموضوع أهميته التي لا تخفى على الباحث في التفسير وفي فقه السيرة، ومن ثمرات هذا البحث فتح الباب لمزيد من البحوث في هذا المجال، خدمةً لكتاب الله تعالى وسيرة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم.

---

[1] في ظلال القرآن لسيد قطب، ص 841

[2] ابن عاشور 110/6، ويُنظر كلام الزمخشري الذي أشار إليه في الكشاف 605/1.

المراجع

1- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974م.
2- إعراب القرآن الكريم وبيانه، محي الدين درويش، دار ابن كثير، دمشق، 1415هـ.
3- أهمية العلم بتاريخ نزول آيات القرآن الكريم ومصادره، أحمد خالد شكري وعمران سميح نزال، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، الأردن، ط الأولى، 2007م.
4- أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لأبي بكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط الثالثة، 1997.
5- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، 1984.
6- التسهيل لتأويل التنزيل، لمصطفى بن العدوي، مكتبة الهدى، مصر، ط الأولى، 1996.
7- تفسير سورة الفاتحة وجزء عم، أحمد فريد أبو هزيم وأحمد خالد شكري، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، الأردن، ط الأولى، 2018م.
8- تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير الدمشقي، تحقيق سامي سلامة، دار طيبة، 1999م.
9- التفسير المنهجي، مجموعة من العلماء، دار النفائس، الأردن، 2006م.
10- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، لوهبة الزحيلي، دار الفكر، ط العاشرة، 2009.
11- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، لمجموعة من العلماء بإشراف أ.د. مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، ط الأولى، 2010.
12- التفسير الوسيط، لمجموعة من علماء الأزهر، مصر، ط الثالثة، 1992.
13- الجامع الصحيح للإمام البخاري، دار الشعب، القاهرة، 1987م.
14- الجامع الصحيح للإمام مسلم، دار الجيل، بيروت.
15- حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، لمحمد الأمين الهرري، دار طوق النجاة، ط الأولى، 2001.
16- الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، دار السلام، الرياض.
17- السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، لعلي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت، ط السابعة، 2008.
18- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، لمحمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق.
19- صحيح السيرة النبوية، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، عمّان، ط الأولى.
20- في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق، ط الثامنة.
21- الكشاف للزمخشري، دار الكتاب العربين، بيروت، 1407هـ.
22- المستدرك على الصحيحين للحاكم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.
23- المسند للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وجماعة، دار البشير.
24- معارج التفكر ودقائق التدبر، لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط الأولى، 2000.
25- معرفة الصحابة لابن منده، تحقيق: عامر صبري، جامعة الإمارات العربية المتحدة، ط الأولى، 2005م.